تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٧ —

القرن الثامن

من أشهر من تكلم في إعجاز القرآن في القرن الثامن الزملكاني في كتابه التبيان في إعجاز القرآن ، والخطيب القزويني صاحب كتاب التلخيص لمفتاح السكاكي ويحيى بن حمزة العلوي وهما من علماء البلاغة ، والأصبهاني والشاطبي وهما مفسران، والزركشي صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن . وسأخص كلاً منهم بكلمة .

١ — الزملكاني :

يؤلف الزملكاني (٧٢٧) كتابه التبيان في الإعجاز ويذكر خلاصة رأيه السيوطي (الاتقان ج ٢ فصل الإعجاز) فيقول : « وجه الإعجاز راجع الى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة وعلة ومركباته معنى بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى » .

فلا يخرج به عن نظرية النظم ولكنه يجعل هذا النظم في جودة كل من اللفظ والمعنى وفي ائتلافهما وليس هذا بجديد ، هذا وقد اعتمد عبد العليم الهندي على كشف الظنون فيما يظهر فجعل وفاة الزملكاني سنة ٦٥١ هـ .

٢ — الخطيب القزويني :

يؤلف الخطيب القزويني (٧٣٩) كتابه التلخيص — لمفتاح السكاكي — فلا يتكلم على الإعجاز بشيء إلا أنه يذكر في مقدمته أن علم البلاغة وتوابعها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

من أجل العلوم قدراً وأدقها سراً إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها وتكشف عن وجوه الاعجاز في نظم القرآن أستارها فيظهرنا على أن المؤلفين في البلاغة على الغالب ينظرون الى علوم البلاغة على أنها واسطة لمعرفة إعجاز القرآن فهو يقرر ضمناً أن إعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته لا في شيء آخر .

٣ — يحيي بن حمزة العلوي :

ويؤلف يحيي بن حمزة العلوي (٧٤٩) كتاب الطراز في البلاغة ويعقد فيه فصلاً مطولاً في الجزء الثالث منه للاعجاز يتبع فيه طريقة الجدل والكلام فيذكر أقوال غيره ويناقشها واحداً واحداً ليردها ثم يقدم رأيه الخاص وأول ما يطالعنا في كتابه الخاص أنه يعرف البلاغة فيقصر الغرض منها على معرفة أحوال الاعجاز فيقول :

« هي علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الاعجاز لأن الاجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل الى الاطلاع على معرفة حقائق الاعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم وإحكام أساسه » .

وفي الفصل الذي عقده للاعجاز يذكر أن فصاحة القرآن وبلاغته تظهران عنده بمقياسين الأول أن يقاس ما في القرآن على قواعد الفصاحة والبلاغة التي قررها وهنا نلاحظ نحن أن هذه القواعد مستمدة من القرآن فكأنه حينما يقيسها إنما يطابق الشيء مع نفسه ، والثاني أن يقاس بأقوال البلغاء . فيظهر فضله في الحالين . ثم يأتي من القرآن بآيات تتعلق ببحوث الفصاحة والبلاغة ويبين أنها جاءت منها في المرتبة العليا وذلك تطبيق على مقياسه الأول للاعجاز .

ثم يذكر أن الكلام في الاعجاز أول المباحث الكلامية والأسرار الإلهية لأنه دليل النبوة ويذكر تقصير من سبقه في بيان أسرار الاعجاز ووقوفهم عند الكلام على مخارج الكلم ، بعضهم لتقصيره في الكلام والإلهيات وهم الأكثرون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كالسكاكي وابن الأثير وصاحب التبيان ـ أي الزملكاني ـ وبعضهم كانت له اليد الطولى كابن الخطيب الرازي الذي لم يأت في كتابه بما ينقع الغلة .

وهنا نراه يتهم المؤلفين قبله بالتقصير فيبالغ لأنهم لم يقفوا كلهم عند مخارج الكلم وسنرى أنه لم يأت بجديد يستحق الذكر وإنما كان جامعاً لما كتبه غيره مستقصياً في الجمع لا أكثر ثم يقول إن الدليل عنده على الإعجاز شيئان :

١ – تحدي النبي للعرب بأن يأتوا بمثله وعجزهم عن ذلك .

٢ – ما اشتمل عليه القرآن من الفصاحة في الألفاظ والبلاغة في المعاني – بالاضافة إلى مضرب كل مثل ومساق كل قصة وخبر وفي الأوامر والنواهي وأنواع الوعيد ومحاسن المواعظ وغير ذلك مما اشتملت عليه علوم القرآن فإنها مسوقة على أبلغ سياق – والخاصة الثالثة جودة النظم وحسن السياق .

ويطيل الكلام في التحدي (الطراز ج ٣ ، ص ٣٧٠) فيذكر أن الله نزلهم فيه على ثلاث مراتب وأنه تدرج فيه من الأكثر الى الأقل – من القرآن ، الى عشر سور ، الى سورة – ويذكر حالهم مع النبي حين هذا التحدي وجوابهم عليه ثم يورد ما يوجهه الملاحدة من الطعن على فكرة إعجاز القرآن ويورد لهم عدة اعتراضات في صور أسئلة تنوق في وضعها وتكلف عناء الاجابة عليها ، والغرض منها إنكار التحدي لأنه عمدة الإعجاز وتتلخص فيما يلي :

١ – ليس القرآن كله بتفاصيله متواتراً بل المتواتر هو القرآن ككل . لأن ابن مسعود أنكر الفاتحة والمعوذتين وحصل خلاف بين الصحابة في كون بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن وأثبت أبيّ بن كعب آية القنوت (اللهم اهدني فيمن هديت الخ) في القرآن ولما كانت آيات التحدي من جملة التفاصيل فلهذا لا يحكم ثبوتها في المصحف فلا يكون فيها دلالة . وهو يرد على هذا بأن القرآن متواتر التفاصيل لأن الأولين كانوا أحرص منا على حفظ القرآن أو هم مثلنا على الأقل فما ادّعاه بعض الصحابة من أن في القرآن زيادةً أو نقصاً هو إما خبر آحاد لا يعتدّ به لأنه يشترط في مثله التواتر وإما أنه وحي ولكنه ليس بقرآن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ً — ليس المقصود من آيات التحدي أن تكون دليل صدق النبوة بل هي من نوع تحدي الخطباء أثناء خطبهم لمن يخالفهم فهو ضرب من المبالغة والادّعاء والافتخار .

ويرد على ذلك بأن النبي قد بلغهم هذا التحدي وكان يقارعهم بالقرآن وكانوا يعرفون المقصود منه .

٣ً — لم يصل التحدي الى كل العالم وعجز بعض الناس لا يدل على عجزهم جميعاً ولا يدل على صدقه . ويرد على هذا بأن العرب اذا عجزوا فغيرهم أعجز وإن لم يصل الى جميع الخلق سابقاً فقد وصل اليهم الآن ولم يقدر على معارضته أحد .

٤ً — هب أن التحدي قد بلغ الخلق كافة فهم عدلوا عن معارضته لأن المعارضة لا تجدي في حسم الخلاف فعدلوا عنها الى الحرب وإنهم لو عارضوه لاحتاج الأمر الى التحكيم ويكون ذلك مدعاة لنزاع طويل يكسب به محمد الوقت فتشتد شوكته فعدلوا الى الحرب ثم إنهم ربما عدلوا عن المعارضة لأنهم لم يدركوا حقيقة المماثلة هل تكون بالفصاحة أو البلاغة أو النظم أو .... (يعدد هنا كل ما ذكر من آراء في وجوه الإعجاز تقريباً ...)

وأجاب على هذا بأن ردّهم على التحدّي بالقول أسلم لهم لأنهم كذلك ليسوا على ثقة من ربح الحرب وأنه ليس الغرض حصول المماثلة من كل الوجوه بل الإتيان بما يظن كونه مماثلاً ، ثم لو اشتبه عليهم معنى المماثلة لسألوا النبي عنها ولكن الأمر معلوم لهم ثم يقول : والنبي أطلق التحدي ولم يعينه بشيء دون شيء اتكالاً منه على ما يعلم من ذلك بمجرد العادة واطّرادها في التحدي بين الشعراء والخطباء فلم يكن محتاجاً الى تفسير المقصود — وهنا نرى ردّه قوياً معقولاً لأن العرف يعين المقصود من المماثلة — .

٥ً — ربما كان المانع لهم من المعارضة اشتغالهم بالحروب العظيمة أو خوفهم من رسول الله وأنصاره . وردّ على ذلك بأن المعارضة كلام لا يشغل عن الحرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد قالوا الأشعار والخطب والحرب دائرة ثم لِمَ لم يعارضوا القرآن زمن السلم ثم كان يمكن الفصحاء أو من هم في معزل عن الحرب أن يعارضوه .

٦ — كانت الدواعي متوفرة للمعارضة وتأخرهم عنها لا يدل على أنهم عاجزون لأنه لا يلزم وقوعها فعلاً ، وردّ على ذلك بأن توفر أسباب المعارضة يوجب عليهم القيام بها وحيث أنهم لم يفعلوا دلّ ذلك على عجزهم عنها .

٧ — وما يدرينا أن المعارضة لم تقع وما البرهان على ذلك ؟ وأجاب على هذا بأن هذا الأمر العظيم لو وقع لما خفي ولاشتهرت المعارضة أكثر من القرآن الذي يصير حينئذ كالشبهة وتصير هي كالحجة ويحفظها الملاحدة والمخالفون للاسلام لما فيها من إبطال أمر النبي .

٨ — قد وقعت المعارضة فعلاً واشتهرت فهذه قصائد العرب السبع وكلام مسيلمة وأخبار الفرس وملوك العجم للنضر بن الحارث ومعارضة ابن المقفع وقابوس بن وشمكير والمعري فكيف تنكر ؟ وردّ على هذا بأن كل هذه المعارضات لا تقارب القرآن ولا يصح أن تقارن به لضعفها .

٩ — ربما كان المانع لهم من المعارضة عدم معرفتهم بما يتكلم به القرآن من أخبار البعث والنشور والملائكة والسماء الخ مما لا دخل لأفهامهم في تعقله وإتقانه وردّ على ذلك بأن اليهود كانوا بين أظهرهم يستطيعون تعليمهم إياها ثم إن اليهود أنفسهم كان فيهم فصحاء .

وهذه الأسئلة ليست ذات قيمة كبيرة – فيما أرى – وإنما ذكرتها لأبين ألوان المناقشة والجدل في هذا الموضوع الذي كثيراً ما تُناقش فيه البديهيات على غير طائل كمناقشته هنا هل حصل التحدي أو لم يحصل وهل فهموا منه معنى المماثلة أو لا ثم لا أدري إذا كانت هذه الأسئلة كان يضعها الملحدون والمخالفون حقيقة أو إنها كانت من وضع المؤلف أو غيره من العلماء ليردّوا عليها ويبينوا قدرتهم في الجدل .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويحاول صاحب الطراز بعد ذلك إثبات أن القرآن معجز بالطريقة الجدلية الآتية : إما أن يكون الإتيان بمثل كل واحدة من السور معتاداً أو غير معتاد فان كان معتاداً كان سكوت العرب عن الإتيان بمثلها دليل إعجازه وإن كان غير معتاد كان القرآن لخروجه عن المألوف والمعتاد معجزاً فالقرآن معجز سواء أكان خارقاً للعادة أم لم يكن .

وهنا يبدو لنا صاحب الطراز مناصراً لرأي الصرفة إلى جانب الرأي بخرق القرآن للعادة دون أن يبين سبب خرقه للعادة بيد أنه لا يجوز الاعتماد على هذا القول لأن هذا الدليل جدلي ولا يقنع أحداً أن يقول إما أن يكون معتاداً أو غير معتاد وكان عليه أن يسعى لتقرير الحقيقة وإثباتها علمياً فهل وقع التحدي والعجز أو لا أولاً ، ثم هل للقرآن مميزات واضحة على غيره من الكلام أو ليس له ذلك ثانياً ، بدلاً من اللجوء الى مثل هذه الحجة المطاطة .

ثم يعرض لأقوال سابقيه في الإعجاز فينقضها واحداً واحداً وها هي هذه الأقوال وردوده عليها .

١ — يبين مذهب الصرفة ويذكر أن النظّام وأبا اسحاق النصيبي من المعتزلة قالا به واختاره الشريف المرتضى من الإمامية ويذكر له تفسيرات ثلاثة : تفسيراً يطابق رأي النظام ، وتفسيراً يؤيد رأي المرتضى ، وتفسيراً ثالثاً لا أدري من أين أتى به وهو أن الله منعهم على جهة القسر من المعارضة مع قدرتهم عليها ثم يردّ عليه بما ردّ به سابقوه من العلماء من أن الصرفة لو حصلت لكانت هي المعجزة دون القرآن ولكان في كلام العرب السابق للقرآن أو اللاحق له ما يساويه .

٢ — يشرح بعد ذلك مذاهب من يجعلون سبب الإعجاز في أسلوب القرآن أو عدم تناقضه أو اشتماله على الأمور الغيبية أو في فصاحته ويفسرون الفصاحة بسلامة الألفاظ من التنافر والتعقيد في المفردات والتراكيب ويردُّ عليها بمثل ردود سابقيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ – ينقد المذهب القائل بأن إعجاز القرآن في اشتماله على الحقائق وتضمنه الأسرار والدقائق ـ وهذا كما نرى مذهب شديد الاتصال بالنظرية العلمية في الإعجاز ـ فيقول إن القرآن يشارك حينئذٍ غيره من الكتب الملخصة التي يستخرج منها الخلف فوائد متجددة وتكون الآيات الصريحة المعنى غير معجزة ومعاني الآيات الأخرى إما أن يدركها الإنسان فلا يكون حينئذ تفرقة بين القرآن وغيره أو لا يدركها فتكون أموراً غيبية ، فيردّ عليها على طريقة الرد على هذه . وهنا نراه يطيل الردّ ، ولا يراعي أن غرض القرآن ليس التعمية واحتواء الألغاز والعلوم وإنما هو الهداية والتأثير في النفس .

٤ – يذكر المذهب القائل بأن الإعجاز في البلاغة وهو يوافق على هـذا القول إذا قُصد به أنه بلغ الغاية في فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه وينكره إذا أريد أنه بليغ بالإضافة الى أحدهما .

٥ – يذكر مذهب الإعجاز بالنظم المراد به أن نظم القرآن وتأليفه هو الوجه الذي امتاز به من بين سائر الكلام وهو يردُّه اذا قصر الإعجاز على النظم دون بلاغة المعاني وفصاحة الألفاظ .

وكذلك يردُّ هذا المذهب إذا جعلوا فيه القسط الأوفى في الإعجاز للنظم من بين هذه العناصر الثلاثة ويلاحظ أنه هنا يفصل بين هذه العناصر ويعطي للنظم مفهوماً خاصاً غير مفهوم عبد القاهر الجرجاني أو الباقلاني فالنظم عندهما مرتبط بالمعاني والألفاظ لا ينفصل عنها ولا سيما عند عبد القاهر فالنظم عنده قائم في حسن ترتيب المعاني في النفس وحسن تأديتها بالألفـاظ مع الاستعانة بقواعد النحو بمعناه الواسع ولا أدري كيف يفصل صاحب الطراز بين هذه الأمور الثلاثة التي تكوّن شيئاً واحداً إلا اذا قصد بالمعاني الأغراض العامة التي يقال فيها الكلام وبالألفاظ مجرد قيمتها الموسيقية .

٦ – يذكر مذهب القائلين بأنه معجز بكل الأمور التي ذكرت ويرفضه لأنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رفض هذه الأمور على التوالي ولأن الفصاحة والبلاغة كافيتان في إعجازه ولا وجه لعدّ غيرهما معها .

٧ً — يذكر مذهب القائلين بأن إعجازه فيما تضمنه من المزايا الظاهرة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها وأن هذا هو الوجه السديد في وجه الإعجاز عنده وأنه سيوضحه بمونة الله ولكنه لا يذكره في وجوه الإعجاز عنده . وبعد أن ذكر ما اختاره من وجوه الإعجاز وقد ذكرتها قبل ، يورد عليها الاعتراضات التالية مع الردود عليها :

١ً — ترجع الفصاحة والبلاغة والنظم إلى مفردات الألفاظ والعرب يعرفونها ، وإلى تراكيبها والعرب قادرون على أن يأتوا منها بالفصيح البليغ ، وهو يرد على ذلك بأن القرآن قد بلغ الغاية في الجودة وأن المقدرة تتفاوت في حسن النظم .

٢ً — إن الفصاحة والبلاغة وحسن النظم في القرآن لا تدل على صدق النبي ووجه الإعجاز في القرآن للدلالة على صدقه وأنه من عند الله والبشر قادرون على الفصاحة والبلاغة وحسن النظم ويجيب علىّ ذلك بأنهم قادرون عليها ولكن الى حد وبأن البشر يتفاوتون في أساليبهم والقرآن يبزّهم ولا يلحقون بشأوه .

٣ً — لو كان القرآن معجزاً بفصاحته وبلاغته لما اضطروا حينما جمعوه بعد وفاة النبي أن يقبلوا الآية ممن هم مشهورون بالعدالة وأن يطلبوا البيّنة ممن هم غير مشهورين بها ، ويردّ على ذلك بأن القرآن مجموع في الصدور قبل وفاة النبي جمعه جبريل ... و .. الخ .

٤ً — لو كانت الفصاحة وجه إعجازه لما اشتبه على ابن مسعود الفاتحة والمعوذتان ولم يعدّهما من القرآن ، وأجاب على ذلك بأنه لم يخالف في كونها وحياً أنزلت للتبرك والاستعاذة وإنما في كونها من القرآن — ثم لأن هذا رأي لابن مسعود فلا يكون مقبولاً لأنه قول آحاد فكأنه خالف دلالةً قاطعةً — .

ويقول في الخاتمة إن القرآن إنما كان معجزاً لما بيّنه سابقاً لا للدلالات الوضعية سواء أكانت باعتبار دلالتها على معانيها الوضعية أو مجردة عنها وذلك فاسد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لأمرين : أولاً — لأن الكلمة قد تكون فصيحة في مكان ولا تكون كذلك في آخر . وثانياً — لأن الاستعارة والتشبيه والتمثيل الخ من أعظم قواعد الفصاحة وإنما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعاني لا باعتبار ألفاظها .

وهنا نراه شديد التأثير بعبد القاهر الجرجاني فيجعل الفضل في النظم للمعاني لا للألفاظ ونرى أنه لم يأت في كلّ ما قدمه بجديد ولكن يقدر له حسن تنظيمه للبحث وطرقه له بصورة علمية منظمة شاملة تغلب فيها روحُ العالم روحَ الأديب وإن كانت لا تخلو من كثير من الجدل العقيم .

٤ — الأصبهاني :

ويأتي الأصبهاني (٧٤٩) فيتكلم في تفسيره على هذه المسألة وقد ذكر السيوطي (في الاتقان ج ٢ ، ص ١٩٨ وما بعدها) رأيه في الإعجاز فقال : قال الأصبهاني : « اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين : أحدهما إعجاز متعلق بنفسه ، والثاني بصرف الناس عن معارضته ، فالأول إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه ، أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى ، فان ألفاظه ألفاظهم قال تعالى : « قرآناً عربياً » بلسان عربي » ولا بمعانيه فكثير منها موجود في الكتب المتقدمة قال تعالى : « وانه لفي زبر الأولين » ، وما هو في القرآن من المعارف الإلهية وبيان المبدأ والمعاد والإخبار بالغيب فإعجازه ليس براجع الى القرآن من حيث هو قرآن بل لكونها حاصلة من غير سبق تعليم وتعلم ويكون الإخبار بالغيب إخباراً بالغيب سواء كان بهذا النظم أو بغيره مؤدًّى بالعربية أو بلغة أخرى بعبارة أو إشارة فإذن النظم المخصوص صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد ... فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه ... (هنا يعدد أصناف الكلام من شعر ونثر) ... ثم يقول: «والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها، يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له رسالة أو خطابة أو شعر أو سجع كما يصح أن يقال هو كلام، والبليغ اذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم ولهذا قال تعالى: (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ... وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً ... فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل وادٍ من المعاني بسلاطة لسانهم الى معارضة القرآن وعجزوا عن الإتيان بمثله ولم يتصدوا لمعارضته لم يخف على أولي الألباب أن صارفاً إلهياً صرفهم عن ذلك وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزت في الظاهر عن معارضته مصروفة في الباطن عنها».

ويلاحظ على الأصبهاني أنه في هذا النص جمع بين القول بالصرفة وبين القول بالإعجاز بالنظم وهما نقيضان والنظم عنده صورة القرآن التي تتألف من عنصري اللفظ والمعنى وليس اللفظ سبب الإعجاز لأن ألفاظ القرآن هي ألفاظ العرب نفسها، ثم نرى الأصبهاني يستبعد أن تكون معاني القرآن سبباً لإعجازه لأنه يرى أن كثيراً من الكتب المتقدمة تحوي هذه المعاني وهو يسوق دليلاً على قوله آية من القرآن الكريم: «وإنه لفي زبر الأولين» ثم ليس في الإخبار بالغيوب والمعارف الإلهية لأنها هي هي لو ذكرت في أي لغة، والقرآن إنما هو معجز بوصفه كتاباً عربياً فإعجازه إذن في نظمه، وهنا نرى الأصبهاني آخذاً برأي عبد القاهر الجرجاني في باب النظم حتى إنه يضرب مثال عبد القاهر نفسه في دلائل الإعجاز وهو مثال الخاتم المصنوع من مواد مختلفة والحلي المتنوعة من مادة واحدة وحتى إنه يستعمل ألفاظه نفسها إلا أنه يخالف عبد القاهر في مسألة الصرفة التي ينكرها عبد القاهر ويشنع على قائليها كما رأينا، وللقرآن عند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأصبهاني نظمه المخصوص فقد رأينا أنه لا يصح عنده أن يقال له رسالة أو خطابة أو شعر أو سجع كما يقال له كلام .

ثم إن الإعجاز - في رأيه - يدركه الأديب البليغ بالذوق لا بتطبيق القواعد العلمية وأساليب البلاغة تطبيقاً جافاً ، ومما يلفت النظر استعماله لفظي الظاهر والباطن في قوله : « عجزت في الظاهر عن معارضته مصروفة في الباطن عنها » ، وأرجح أنه يقول هذا متأثراً بفكرة الباطنية في التفسير .

٥ً — الشاطبي :

للشاطبي (٧٩٠) رأي يتصل بالإعجاز اتصالاً سلبياً فهو ينكر التفسير العلميَّ الذي يزعم أن القرآن يحوي كل العلوم بحيث لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها مما جعله المتأخرون من أهم أسباب الإعجاز على حين ليس هو صحيحاً في ذاته وليس منها في ورد ولا صدر ، ويقول الأستاذ الخولي فيه (التفسير ، منهجه ومعالمه) : « والمخالفــة القديمة فيه - أي في التفسير العلمي - ما يبديه الأصولي الأندلسي أبو اسحق ابراهيم بن موسى الشاطبي (٧٩٠) - في كتابه الموافقات وهو ينقد هذا الرأي العلمي للأسباب الآتية : ١ً — هذه الشريعة أمية لأنها كذلك فهو أجرى على اعتبار المصالح . ٢ً — كان للعرب علوم وافقت الشريعة على بعضها وأبطلت بعضها الآخر لم تخرج عما ألفه العرب وينكر بعد ذلك أن يكون القرآن يحتوي على كل علم من علوم المتقدمين والمتأخرين . ٣ً — الصحابة والتابعون كانوا أعلم منا بالقرآن ولم يدّعوا شيئاً من هذا ويذكر الشاطبي أدلة أصحاب هذا التفسير العلمي وهي استدلالهم :

آ — بقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » وقوله : « مافرّطنا في الكتاب من شيء » .

ب — بفواتح السور وهي مما لم يعهد عند العرب وبما نقل عن الناس فيها .

حـ — بما نقل من ذلك عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وغيره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورد على الأول بأن المراد بذلك العبادات وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ في الآية الثانية ، وردّ على الثاني بأن فواتح السور قالوا بأن للعرب بها عهداً مما عرفوا من حساب الجمل عن أهل الكتاب أو المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله ، وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يقل بذلك السلف ، وردّ على الثالث بأنه لا يجوز أن يضاف الى القرآن ما لا يقتضيه وان يستعان على فهمه بما يضاف علمه الى العرب خاصة فبها يوصل الى علم ما أودع من الأحكام الشرعية فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضلّ عن فهمه » . ويضيف الأستاذ الخولي الى نقد الشاطبي ما يؤيده مما سنراه عند الكلام على رأي الخولي في الإعجاز .

٦ — الزركشي :

يتكلم بدر الدين الزركشي (٧٩٤) على الإعجاز في كتابه (البرهان في علوم القرآن) — هذا الكتاب موجود في المدينة انظر مجلة المعارف المجلد ١٨ رقم ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٦ ص ٤١١ ، وانظر أيضاً مقدمة الإتقان للسيوطي ، وموجود في مصر أيضاً — ويظهر مما أورده السيوطي من رأيه أنه كان مجرد جامع لآراء من سبقوه ، قال السيوطي (الاتقان ج ٢ ، ص ١٩٨ فصل الإعجاز) : « وقال الزركشي في البرهان : « أهل التحقيق على أن الاعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده ، فلا معنى لنسبته الى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مما لم يسبق ثم يعدد ما سبق من الأقوال المختلفة » .

فليس للزركشي رأي خاص إذن في الاعجاز ولكن المهم أن يعتقد بامكان وجود وجوه للإعجاز لم تقل حتى عهده فكأنه يؤمن بنظرية الاعجاز العلمي .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

القرن التاسع

أشهر من لهم في فكرة الاعجاز كلام اطلعت عليه في هذا العصر ثلاثة : ابن خلدون والمراكشي والسيوطي ، ويلاحظ على هذا الأخير أنه كان يأخذ من كل علم وفن بطرف وأنه ألف في جميع العلوم الاسلامية والعربية التي كانت معروفة في زمانه . وسأتحدث عن كل واحد منهم .

١ – ابن خلدون :

يتكلم ابن خلدون (٨٠٨) في مقدمته المشهورة على فن البيان فيقول : واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الاعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الأفهام عن دركه وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً وذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه . وأحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن مما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير » .

فابن خلدون يؤمن إذن بالاعجاز البلاغي الذي يدركه من كان له ذوق بمخالطة اللسان وحصول ملكته ويعتقد بأن العرب زمن النبي كانوا أعلى مقاماً وأبين لساناً من أدباء ما بعد العصر النبوي من المحدثين البلغاء وهذه النقطة موضع نظر وذكرت رأيي فيها من قبل .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net